فرنسا تبرّ العرب !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

كل من شاهد الجريدة الفرنسية السينمائية التى عرضت فى الأسبوع الماضى فى بعض دور السينما فى القاهرة ، لاشك قد امتلأ قلبه بكثير من التقزز والإشمئزاز والسخط لمنظر من مناظرها . هو منظر هذه « القطع الآدمية » المشوهة التى جمعتها الدعاية الفرنسية ضد الجزائر والغرب لتعرضها على عيون الناس فى العالم كله كنموذج لبرها بعرب الجزائر ! لقد جمعت قطعاً من الفقر والتشوه والعرى والجهومة والضياع لتؤكلهم ثريداً فى عيد الأضحى ..! واجتهدت أن تأخذ لهم صوراً من مقاطع تبرز صوراً فنية للفقر والشناعة ! ولو عرضت علينا صوراً لمجموعة من الذباب أو الكلاب الضالة لارتاحت اليها العيون بعض راحة لم تجدها فى منظر هؤلاء التعساء! وإن منظر العرايا من زنوج المجاهل العائشين وراء التاريخ ، المنقطعين عن العالم لأجل كثيراً من مناظر هؤلاء الكرام الذين أضناهم البؤس وأضواهم الحكم المذل المرهق ، وجعل على وجوههم سمات من العذاب والضيق ؛ فإن الزنوج يتمتعون بالصحة الطبيعية والحرية الطبيعية والمجال الحر فى مجاهلهم ومتقلباتهم الواسعة ، أما أولئك العرب الذين كانوا مثال الرقة الأندلسية والنظافة الإسلامية والحرية العربية والذكاء اللامع والمشاركة الناجحة فى الحضارة ، فقد حولهم الحكم الفرنسى إلى مجموعة أشنع من مجاميع الذباب والكلاب الضالة . وإن الكلاب الضالة ربما لا تجد القوت الميسر ولا السهر على مصالحها ، ولكنها على كل حال تجد حرية العيش ، أما هؤلاء فلا يجدون إلا قيوداً من التعس والذل والحرمان من مقومات الأجسام ومقومات الأرواح .

إننى لا أستطيع أن أفهم من عرض مثل هذه المناظر إلا اهتمام فرنسا بأن تبرهن للعالم على أن هؤلاء العرب الذين ابتلوا بحكمها منذ مائة وعشرين سنة قوم هم حثالة الناس وفى المستوى الأدنى من الحياة ، فهم أبعد الناس عن منحهم حق تقرير المصير والحريات العامة ، وأقرب الناس إلى فرض القسوة الفرنسية عليهم . ولا أستطيع أن أفهم إصرار فرنسا على إقناعهم عن طريق الجهل والفقر والحرمان والتعس — مع أن فرنسا فى زعمها أمة الرقة والجمال وتسجيل حقوق الإنسان — إلا أنها تضمر لتلك الكتلة العربية والإسلامية عداوة وحقداً موروثاً لأسباب تاريخية لا يجهلها أحد ، فهى تثأر منهم وتنكل بهم وتحرمهم أبسط حقوق الإنسان وهو حق الحياة وحق التعلم وحق الصحة ...

إن عاراً على فرنسا أن تظل جامدة فى أسلوب حكمها للمغرب العربى مع أن الإنجليز ابتدأوا يخففون وطأة حكمهم فى الهند ، درة تاجهم . وأصل بلاء العالم العربى بالاستعمار هو وقوعه على طريق الهند .

وإن من العار أيضاً عليها أن تعرض مثل هذه المناظر للذين ابتلوا بحكمها . لأنها هى المسئولة عما هم فيه من تخلف وحرمان ولو شاءت لرفعتهم واجتهدت فى وصلهم بقافلة الإنسانية السائرة . والذين يملكون حظائر للحيوانات يجتهدون أن يعرضوا منها على عيون الناس للفخر بما تصل اليه من شبع وسمن وصحة وسعادة ، ولو أنها تذهب بتلك الحيوانات أخيراً للذبح ، أو تجز صوفها أو تأخذ لبنها أو تستخدمها فى حرث الأرض وزرعها . فلماذا تعرض فرنسا مثل هذه المناظر التاعسة لهؤلاء الذين انحطت بهم عن مستوى الحيوان؟! ألا إنها شهادة مسجلة على فرنسا ، سجلتها بيدها لتثير بذلك لعنات الأحرار وسخطهم عليها !

لقد طالما ذكرنا فرنسا برسالتها الإنسانية التى هى تاج مجدها الحقيق ، والعنصر الباقى لفخرها على مدى الزمان ، ولكن الذين فى مصر من الفرنسيين وأصدقائهم يلوح لى أنهم لا يحركون ساكنا ولا يأبهون للتذكير ، وقد أخذتهم سكرة الثقة بقوة فرنسا وغلبها على هؤلاء الضعفاء المبتلين بها .

ولكن لتعلم فرنسا أن الفجر الدولى قد سطع على أوكار الرجعية السياسية الجامدة التى تنقل جراثيم الطغيان والجهالة إلى محيط العالم الواسع كله ، فلم تعد العين الانسانية تطيق أن ترى مثل هذه المناظر التى تذكرها بأشنع صور القسوة الجاهلية ، ولتعلم فرنسا أيضا أن مجدها قد أخذ فى الأفول منذ أن تخلت عن رسالتها الانسانية ، رسالة ثورتها ، وأن سمعتها قد ساءت واسطة

حكمها للمغرب العربي ذلك الحكم العنيف المظلم الذي يحرم المحكومين النور والصحة والعلم ثم يعرضهم على رءوس الاشهاد ليسمع بهم ولمن عليهم ما كلة تريد ! بينما يأكل أكبادهم بالمرض ويطمس وجوههم بالفقر ، وعقولهم بالجهل ، ثم يشنع عليهم وينسب إليهم وإلى دينهم ونظام حياتهم ماهم فيه من شقاء .

وإن وجوه هؤلاء الأطفال الذين خصهم ذلك الشريط السينمائي بالتفاتة لها مغزاها في التشنيع على هيئة شعرهم وعيونهم كان من الممكن ، لو أرادت فرنسا ، أن تخرج منها وجوه علماء وأطباء ومحامين ومهندسين وقواد وغيرهم ، ولكن فرنسا أرادت أن تعطل قوى الحياة في هذه الأجسام لإفناء أمتهم وضم أرضها إلى أرض فرنسا ... ولكن الله العادل الرحيم المقتص من الظالمين قد أراد أن يفني فرنسا ويحطم مجدها ويبلبل عقائدها ويضرب بعضها ببعض وقد دنس بنعال أعدائها حرمات أرضها قبل أن تفنى هؤلاء وتقضي عليهم القضاء الأخير الذي تتربصه منذ مائة وعشرين سنة . وسترى فرنسا أن هذه الأمة المغربية ستنهض وتشترك في تجديد رسالة العلم والحضارة الحقيقية .

وما في فرنسا من براكين الاختلاف كفيل بأن يدمر حياتها ووقوعها بين قوتي الشرق الروسي والمغرب الانجلوأمريكان سيجعل أرضها مجالا للصراع المدمر الآتي لا محالة ، وبدلا من أنها كانت تجد في شمال إفريقية مجالا لشد أزرها لو أنها أحسنت صنعاً إلى المغاربة وحكمت قلوبهم بالحب ، ستجد في هذا المغرب إلباً عليها وقوة تشترك في هدمها. وقد فات أوان الظلام واختلف الحساب وانعكس عليها قصدها من إفناء المغاربة بعد سطوع الفجر الدولي .

وإن الذين يشهدون محافل المغاربة في مصر ليرى العزم المصمم والإيمان الراسخ والجهاد الهازىء بالآلام في سبيل الحرية والحياة .

وإن قلوب المشارقة من العرب والمسلمين لتغلي غليان السخط والعداوة والاحتقار للحكم الفرنسي في شمال إفريقية كلما رأت هذه النخبة الممتازة من شباب تونس والجزائر ومراكش الذين كان من حسن حظ العرب والمغرب عموما أنهم استطاعوا الإفلات من الأغلال الفرنسية ليلفتوا النظر إليها من الخارج متعاونين مع المشارقة . وإنهم لنماذج صالحة تثير الفرح بمستقبل المغرب إذا ما انزاح عنه النير الفرنسي ، وإنهم أيضاً ليثيرون السخط على فرنسا حينما نرى وجوههم السمحة وألسنتهم الفصيحة ونقارنها بما رأيناه مع هذه الوجوه المطموسة بسمات الحرمان وأمارات النكال في هذا الشريط السينمائي الذي أرادته فرنسا دعاية لها فكان دعاية عليها .

وإننا لنحس إحساساً صادقاً أن المغرب العربي المبتلى بفرنسا يغلي غلياناً تفور له قلوب العرب في الشرق بالغضب والسخط على ذلك الحكم القاسي الذي يربط على الجناح الأيسر للعروبة بالحديد ويوقد عليه بالنار ويحبسه أن يخفق طليقا موازياً للجناح الأيمن لها حتى ينهض العرب مما .

فإذا كانت فرنسا لا تحسب حساباً لصداقة العرب وهم أمة كبيرة في البحر الأبيض على الأقل ولا تعاملهم بقانون الجوار والمصالح المشتبكة فإنها تبرهن بذلك على أنها لا تنظر إلا لحاضرها

وانظر إلى أمة لا تنظر حاضرها ولا تسعى لمستقبلها بكسب صداقة سبعين مليوناً من الجيران الدائمين المعتدلين الأوفياء الأشراف .

عبد المنعم خلاف

ظهرت حديثا :

الطبعة الجديدة من كتاب :

في أصول الأدب

للأستاذ

احمد حسن الزيات

يطلب من دار الرسالة ومن سائر المكاتب الشهيرة
وثمنه ٣٥ قرشاً عدا أجرة البريد